الفصل الخامس

مهجر إسماعيل بين العهد القديم والروايات الإسلامية

يعتبر بحث (مهجر) إسماعيل عليه السلام ومعرفة المكان الذي استقر فيه عنصراً تابعاً للمبحث السابق، ويعود هذا إلى كون موطن الهجرة الإسماعيلية هو المؤسس ــ عملياً ــ لنبوة محمد ﷺ باعتباره (وارثاً) لنبوة جديه إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وهو الموضوع الذي جعلناه أحد الأهداف الأساسية ــ كما أشرنا في المبحث السابق ــ لدراسة سن الهجرة الإسماعيلية. كما أن استعراض موقف الإسلام واليهودية فيه سيبين درجة (الضبط) في روايات القرآن الكريم والعهد القديم. ومن ناحية أخرى، فإن مثل هذا البحث الذي نقترحه سيساهم في تأكيد أو نقض بعض الأفكار المقبولة عموماً في الفكر الإسلامي.

١ ــ مهجر إسماعيل في العهد القديم:

يجب التذكير قبل بدء بحث هذا الموضوع في العهد القديم بما قلناه في فصل سابق من أن الأمر بالنسبة لهذا الكتاب ليس أمر (هجرة) مقصودة لتحقيق (غرض) ديني، بل

هو (تحديد مكان سكن) إسماعيل عليه السلام بعد إبعاد والده له خضوعاً لتكليف إلهي يأمره بطاعة زوجته سارة. كما يجب لفت الانتباه ــ أيضاً ــ إلى التأثير الكبير لعدم قدرة اليهود على تصور (نبوة) إسماعيل مع غيابه عن منطقة (فلسطين)، وهي سكنى الإسرائيليين في زمانه، واختفاء نسله من المنطقة، في رسم صورة المكان الذي استقر فيه بعد (الإبعاد) الذي افترضوه، وشكلوا نصوصهم المقدسة ــ كما تبين مما سبق وسيتبين فيما يأتي ــ بناء عليه.

وقد كان من المفروض ــ بناء على العناصر السابقة ــ أن يتوقف كتاب التوراة في موضوع إسماعيل عند حد (إبعاده) لعدم تأثيره على (الدين) أو (الحياة) في إسرائيل، ولكنهم أثبتوا (مهجره) و (وفاته) و (بنيه). وهو أمر يعود في الأساس إلى (الطابع التاريخي) عموماً للعهد القديم. وهذه هي (النتف) التي سنعتمد عليها في دراستنا لهذا الموضوع.

وبعد، فإننا إذا انصرفنا إلى البحث في تحديد مكان سكنى إسماعيل في العهد القديم، فإننا نقابل أول إشارة لذلك في نص جاء ضمن بشارة الله عز وجل لهاجر، وهو «وأنه يكون إنساناً وحشياً»[1] وهذا يعني أن إسماعيل كان موجهاً قبل ميلاده

---

(١) التكوين: ١٦/ ١٣.

ليعيش بعيداً عن العمران البشري، وهو ما نستفيده من كلمة (وحشي) التي تدل عندنا على تعيين مكان سكناه، وهو: الصحراء. نعلم ذلك لأن (التوحش) وما يفترضه من القوة النفسية والبدنية ــ كما تقول التوراة ــ لم يكن ممكناً بالنسبة لتلك الأصقاع التي سكنها إبراهيم وأهله في فلسطين إلا في الصحراء، لا في (الأدغال) إذ لا وجود لها في كامل المنطقة.

ولا بد الآن من محاولة معرفة أي الصحاري كان من الممكن أن (يتوحش) فيها إسماعيل عليه السلام؟ وأي صحراء اختارتها التوراة مقراً له ولبنيه من بعده؟

من الناحية الجغرافية تحيط بمنطقة فلسطين شمالاً أراض خصبة مأهولة بالسكان، وكذلك الأمر بالنسبة للشرق. وعلى العكس منهما تنفتح أرض الكنعانيين انفتاحاً مهولاً على صحراء العرب وصحراء شبه جزيرة سيناء، وذلك نحو الجنوب والغرب. ولهذا فإن (توحش) إسماعيل لم يكن ممكن التحقق إلا في إحدى هاتين الصحراءين.

والتوراة تقدم للموطن الذي تقترحه بذكر هجرة إبراهيم داخل أرض الكنعانيين ذاتها، فتجعله يتقدم بأسرته ــ قبل الإبعاد ــ نحو جنوب فلسطين «وانتقل إبراهيم من هناك إلى

أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار...»[1]، وهي منطقة صحراوية متصلة بأرض العرب، كما تتصل بشبه جزيرة سيناء.

وإلى الآن يبقى احتمال سكنى إسماعيل بلاد العرب أو سيناء مستوي الطرفين، وكذلك الأمر بعد رواية التوراة (للإبعاد) إذ تجعل أمه تتيه به رضيعاً في برية بئر السبع المفتوحة على كلا المنطقتين. ثم تختار التوراة ـ أخيراً ـ موطناً لإسماعيل تجعله في شبه جزيرة سيناء. «وكان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر»[2].

وبدراسة هذا النص يتبين مايلي:

١ ـ أن هاجر هي التي ارتحلت بابنها إلى برية بئر سبع، ثم تنقلها التوراة بعد ذلك إلى أرض سيناء. وقد بينا من قبل تناقض التوراة عند عرضها لهذه المسألة، كما أوضحنا سبب خطأ الاعتقاد بإبعاد إبراهيم ابنه رضيعاً. وحصرنا سبب ذلك

---

(١) التكوين: ٢٠/ ١ ـ ٢.

(٢) التكوين: ٢١/ ٢٠ ـ ٢١. ولا يوجد في هذا النص تحديد جغرافي لموقع (فاران) لكن المشرفون على طبع العهد القديم أرفقوه بخريطة تجعلها جنوب سيناء.

في عدم فهم اليهود لسر عملية الإبعاد ذاتها، ومحاولتهم سد الثغرات التي نشأت عن زعمهم حصر النبوة في إسحاق رغم وجود إسماعيل مع أبيه. كما قررنا فيما سبق بناء على القرآن الكريم أن إبراهيم هو من أوصل ابنه الشاب ــ وليس الرضيع ــ إلى المكان الذي اختاره الله، وهو ما يبدو واضحاً في إحدى روايتي التوراة، التي تطرح فكرة (الاختيار الإلهي) وتربطها بهجرة إسماعيل في سن الشباب.

٢ ــ أما أهم نقطة طرحتها التوراة فيما نحن بصدده، فهي أنها جعلت موطن إسماعيل (فاران) التي تحدد موقعها جغرافياً في (أقصى) جنوب شبه جزيرة سيناء. وهي منطقة منقطعة تماماً عن البشر، خصوصاً في ذلك الزمان، كما أنها كانت خالية من السكان. والحقيقة أن التوراة كانت قاطعة في تعيين الموضع، ومن هنا فإننا لم نستطع أن نفهم موقف الأستاذ جرجي زيدان الذي يجعلها تحدد موقع (فاران) في شمال سيناء[1]. إلا أن يكون ذلك:

١ ــ محاولة منه تقريب وجهات النظر الإسلامية واليهودية في الموضوع، ويتأكد ذلك إذا علمنا أنه من العلماء الذين يتبنون القول بأن شبه جزيرة العرب ــ عند أهلها من

---

(١) تاريخ العرب: جرجي زيدان، ص١٨٦.

العرب ــ هي إقليم يضم بلاد العرب وفلسطين والشام والعراق، إضافة إلى شبه جزيرة سيناء[1]. وهذا القول كما هو واضح يجعل الخلاف بين المسلمين واليهود حول موطن إسماعيل (في بلاد العرب) باعتبار أن المنطقة كلها تابعة لشبه الجزيرة.

لكنه في الحقيقة رأي غريب، ولا يحقق الهدف المرجو منه في الوقت نفسه. وغرابته تعود إلى أن العرب لم يعتبروا منطقة سيناء إقليماً عربياً. وأبسط وأوضح الأدلة على ذلك عدم وجود أي قبيلة عربية مقيمة في تلك المنطقة. وإذا كان لا بد من إضافة هنا فإننا نرى أن خطأ الأستاذ جرجي السابق يجب أن يحمل على ما يلاحظ في كتابه (تاريخ العرب) من عدم تمييزه بين العرب والساميين، ولهذا يجعل بلاد الساميين أرضاً للعرب. وهي فكرة مقبولة باعتبار أن هجرات جميع الساميين ــ كما أكد ذلك معظم الدارسين ــ خرجت من أرض العرب[2]، ولكنه ليس مبرراً لعدم اعتبار عامل (الزمان) الذي

---

(١) يرتكز الأستاذ زيدان في الأمر أيضاً على الجمع بين انتساب العرب إلى إسماعيل، وهو ما يعترف لهم به اليهود، وبين تحديد التوراة لموطن إسماعيل في سيناء. وهذا النوع من الأدلة يسمى (الدور) وهو مرفوض عند علماء العقيدة.

(٢) انظر: لمعرفة هجرات العرب في التاريخ، العرب، فيليب حتى، =

فعل فعله في تمييز الشعوب المهاجرة عن الشعب الأصل. وأما من حيث عدم تحقيق فكرته لهدفها فيعود إلى أن المسلمين واليهود لم يختلفوا في تعيين انتماء المنطقة التي سكنها إسماعيل ــ وفكرة جرجي في هذه الحالة كان من الممكن أن تحل الإشكال ــ بل إن اختلافهم يعود إلى تمايزهم في تعيين مكان بعينه مقراً له ولبنيه من بعده.

٢ ــ أو أن السهو قد غلب على الأستاذ زيدان، فلم يميز بين سكنى إسماعيل حسب التوراة وبين سكنى بنيه فيها، حيث أنها تجعل موطنهم في شمال شرق سيناء، مما يلي أرض العرب.

وعلى كل فإن هناك سؤالين ملحين يجب طرحهما على التوراة في موضوع تحديدها لموطن إسماعيل في جنوب سيناء، وهما: لماذا تبعد هاجر بابنها هذا البعد؟ ومن أين لها في هذه المنطقة المعزولة أن تزوجه بمصرية؟

ونرجح بناء على ما استنتجناه من بحث (الدوافع) اليهودية (لتحريف) العهد القديم، أن الكتبة (اختاروا) موطناً لإسماعيل يتناسب ــ كعادتهم دائماً ــ مع مقدورات التصور البشري، فجعلوا شبه جزيرة سيناء موطناً لإسماعيل لأنه يتناسب مع نظرتهم لسن إبعاده ولأصل هاجر. وهنا يبدو انتقال هاجر إلى مصر منطقياً تماماً مادام هذا البلد هو وطنها الأصلي، خصوصاً وقد انعدم

= ص١٤، وتاريخ العرب، جرجي زيدان.

اختيار الولد نظراً لصغر سنه. ولكنهم توقفوا بها عند (الصحراء) ولم يجرؤوا أن يدخلوها (عمران مصر) لأن ذلك يتناقض مع (الواقع) والذي يتمثل في انتشار أبناء إسماعيل في كامل إقليم الحجاز.

هذا عن موطن إسماعيل، فماذا في التوراة عن سكنى بنيه؟

نحب أن نشير في البدء أن العهد القديم يقرر في أكثر من موضع العهد الإلهي لإبراهيم عليه السلام من أن ابنه إسماعيل عليه السلام سيكون (أمة). وقد حصر علماء اليهود معنى هذا المصطلح الكتابي في إكثار نسله، بحيث يكون له أولاد وأحفاد كثيرون يشكلون (قبيلة) كبيرة، تنقسم إلى اثنتي عشرة بطناً بعدد أبنائه، وهم «... بنايون بكر إسماعيل، وقيدار، وأدبئيل، ومبسام، ومشماع، ودومة، ومسا، وحدار، وتيما، ويطور، ونافيش، وقدمة... اثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم»[1].

هذا عن أسمائهم، أما موطنهم فإن التوراة تجعله في البادية التي تقع جنوب فلسطين، أو شمال الحجاز أو شرق سيناء فكلها مواطن يصدق عليها الوصف التوراتي الذي سيأتي». وهذه سنو حياة إسماعيل: مائة وسبع وثلاثون سنة،

---

(١) التكوين: ٢٥/١٣ ـ ١٧.

وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه. وسكنوا (أي أبناءه) من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور»[1]

وقد جعلت التوراة إسماعيل يموت في المنطقة التي اختارتها سكناً له بعد إبعاده، ولكنها نقلت أبناءه إلى منطقة قريبة من فلسطين وأرض العرب دون أن تفسر سبب ذلك. كما تجدر الإشارة أنها تحاول التمويه، وذلك واضح في عدم تسمية المنطقة التي سكن فيها بنو إسماعيل باسمها، وبربط موطنهم بمصر مع أنهم كانوا حسب التحديد الجغرافي الذي أعطته أقرب إلى بلاد العرب وفلسطين منهم إلى مصر.

ونحن نعتقد أن البحث في هذه الأمور التي تساءلنا عنها منذ قليل تشكل أساس كشف الحقيقة حول موطن إسماعيل نفسه، ناهيك عن معرفة سكن أبنائه. ولبيان ذلك نحتاج إلى الإشارة إلى مجموعة من الحقائق:

١ ــ الأولى: وتتمثل في خلو سيناء ــ وخصوصاً جنوبها وهو الموقع الذي جعلت إسماعيل يحل به ــ من أي وجود إسماعيلي.

---

(١) التكوين: ٢٥/١٨. يقص كتبة التوراة بهذا المكان شمال سيناء، لأنه يقع تقريباً في مقابل أراضي الدولة الأشورية في بلاد ما بين النهرين، ولأنه الإقليم الذي (أمام) مصر، أي ممر لها.

٢ ــ أما الحقيقة الثانية فتتمثل في وجود إسماعيلي كثيف سواء في المنطقة التي أسكنت فيها التوراة بنيه أو ــ خصوصاً ــ إلى الجنوب منها. ويتمثل هذا الوجود في الكثير من القبائل العربية التي تنتسب إلى إسماعيل، كما يتمثل فيما يشتم من استعراض أسماء أبناء من رائحة عربية.

هذا ما نعلمه عن الأمر، فهل كان الكتبة اليهود يعلمون هذه الحقائق عند تدوين سفر التكوين؟ من المؤكد أن الإجابة هنا هي: نعم. أما إذا أردنا أن نتعرف عن كيفية تحصيلهم ذلك، فيكفي أن نعلم أنهم من أبناء المنطقة، وبالتالي فقد كانوا على دراية بقبائلها ومواطن إقامتها وأنسابها، خصوصاً إذا كانت هذه القبائل من المجاورين لهم. وهو الأمر الذي قد تحقق في بعض ولد إسماعيل ممن تقدم إلى الشمال بعد أجيال من إقامة إسماعيل في (مكة)، يدل على ذلك سكنى بعض القبائل العربية وانتشارها إلى حدود الشام الجنوبية. كما يدل عليه تسمية بعض المناطق المشهورة في المنطقة بأسماء ولد إسماعيل مثل: تيماء، ودومة... وتأسيساً على ما سبق لم يكن بإمكان الكتبة اليهود إلا أن ينقلوا أبناء إسماعيل من جنوب سيناء ــ وهو الموطن الذي كان من المفروض أن يبقوا فيه بعد وفاة والدهم ــ إلى منطقة تحقق فيها النصوص مطابقة مع الواقع الذي يعرفونه.

وقد يتساءل متسائل هنا فيقول: وما المانع الذي يحول دون سكنى إسماعيل جنوب سيناء مع سكنى أبنائه في المنطقة العربية؟

في الحقيقة لا يحول شيء دون ذلك، إلا أن:

١ ــ إضراب التوراة ــ وهي كتاب تاريخ إضافة إلى كونها كتاب عقيدة ــ عن ذكر سبب لهذه (الهجرة) الجماعية لكل أبناء إسماعيل عن المنطقة التي سكنها والدهم إلى الموطن الذي أسكنتهم فيه بعد وفاته.

٢ ــ عدم وجود أي أثر مهما كان بسيطاً عن أي وجود إسماعيلي في سيناء، خصوصاً وقد كان منتظراً ــ نظراً لكثرة أبناء إسماعيل ــ أن يبقى هذا الأثر، كما بقي ما يدل عليه في انتساب العرب وتسمياتهم وبعض مناطق بلادهم التي سكنها الإسماعيليون.

إن ما ذكرناه قبل قليل يجعلنا نشك في سكنى إسماعيل في منطقة سيناء أصلاً، ناهيك عن ولده الذين لم تثبت التوراة لهم ــ ولو في نص واحد ــ الإقامة هناك. وعلى العكس من هذا، فإن سكنى إسماعيل في أرض العرب ــ ولو لم تنص التوراة على ذلك ــ أكثر موافقة للاعتبارات العقلية والحقائق التاريخية. أما من حيث الاعتبارات العقلية فإنها توجهنا إلى

الاعتقاد بأن لكل واقع أثراً، والواقع فيما يخص موضوع بحثنا هو سكنى أصل عرقي كثير الولد ــ هو هنا إسماعيل ــ أرضاً ما ــ هي هنا أرض العرب ــ أما الأثر الحاصل عن هذا فهو بقاء أبنائه في منطقة سكنه. وهذا أمر ثبت لإسماعيل وولده كما تدل على ذلك الحقائق التاريخية. وبالتالي لا يمكن تصور سكن له إلا في المنطقة التي تتوافر فيها هذه الموافقة لمنطق الحوادث ولحقائق التاريخ، وهي أرض العرب.

وقد وفرت هذه الأرض التي توافرت فيها الشروط السابقة إمكانية تحقيق بشارة هامة وردت في التوراة، وهي: الوعد بتصيير إسماعيل أمة. وهي بشارة وردت في التوراة ــ وهذا أمر في غاية الأهمية ــ لإبراهيم نفسه لا لابنه إسماعيل، ومن هنا نأخذ كل أبعادها ومداها، ولذلك فمفهوم (الأمة) يجب أن يؤخذ باعتباره متعلقاً بإبراهيم لا بولده الذي لم يكن إلا أداة لتحقيقها. وهذا أمر لم يقدره اليهود حق قدره فتعاملوا مع البشارة وكأنها بشارة لإسماعيل، وحققوا بذلك فصل الابن عن والده ــ وبالتالي نبوته عن نبوته ــ أما الوسيلة التي توصلوا بها إلى هذا الغرض فهي فهمهم هذا الوعد ــ في ظل إقصاء إسماعيل من عهد النبوة ــ باعتباره يشير إلى كثرة الولد لا أكثر.

ومعنى هذا أن اليهود قد حرفوا مصطلح (أمة) الوراد في

البشارة. والذي يدل على بطلان فهمهم له: أن المعنى الذي يؤخذ من السياقات التي وردت فيها هذه البشارة يدل دلالة واضحة على أن لفظ (الأمة) يعني:

(أ) الرابط العرقي المتمثل في نسل إبراهيم.

(ب) الرابط الروحي تبعاً لاعتقاد إبراهيم.

(ج) الرابط العددي وهو الكثرة التي تظهر باعتبارها كذلك.

وهذه أمور يؤدي اعتبارها، كما يؤدي تتبع تحقيقها تاريخياً إلى نتيجة واحدة وهي: أنها لم تتجل بالصورة التي فسَّر بها اليهود كلمة (الأمة)، أي باعتبارها كثرة في أبناء إسماعيل، بل الصورة التي تحقق مفهوم الأمة الإبراهيمية كما هو في اللغة وفي الدين، أي عدداً كثيفاً من الأبناء ــ مثل عدد نجوم السماء وعدد الرمل كما تقول التوراة ــ ينتسبون انتساباً مشهوراً إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ويدينون بدينه وهو الإسلام. وكل هذه أمور تحققت في العرب قبل بعثة النبي ﷺ بقرون كثيرة، واستمرت ببعثته إلى اليوم. وقد عرفت إذن هذه البشارة تحقيقاً كلياً في العرب وبهم مما يعني أن سكن إسماعيل ــ باعتباره أداة للتجلي التاريخي والفعلي للبشارة ــ لابد أن يكون أرض العرب دون غيرها.

وإذا شئنا الآن أن نلخص نتائج البحث السابق فإننا نجدها تتمثل في:

١ ــ تدخل العامل الإنساني في طرح شبه جزيرة سيناء موطناً لهاجر.

٢ ــ عدم تحقيق هذا الموطن لفكرة الأمة كما يفهم من اللفظ في التوراة.

٣ ــ عدم وجود دليل تاريخي ــ مهما كان ــ على وجود إسماعيلي في شبه جزيرة سيناء.

٤ ــ عدم وجود دليل لغوي على هذا الأمر السابق.

ويتضح بهذا أن مهجر إسماعيل لم يكن إلى شبه جزيرة سيناء، بل إلى أرض أخرى تحقق جميع مطالب القضية، وتتحول ــ بتبنيها ــ اعتراضاتنا السابقة إلى أدلة تؤكد اختيارها مكان للهجرة، وهي: أرض العرب، ففيها لا يوجد مكان للاختيار الإنساني للأرض، كما هو الأمر بالنسبة لاختيار هاجر لأرض أهلها موطناً لها ولابنها، بل يتأكد العامل الإلهي في الاختيار.

وفيها (الأمة) التي تحقق المعنى الكامل للكلمة كما وردت في العهد القديم. وهو ما يؤيده التاريخ الإنساني، ويؤكده أفراد الأمة أنفسهم ــ أي العرب ــ الذين ظلوا عبر

تاريخهم الطويل يعتبرون أنفسهم أبناء لإسماعيل بن إبراهيم، وذلك قبل بعثة محمد ﷺ بقرون طويلة.

وفيها بقايا دين يدل على وجود قديم لدعوة نبي، وهو الوثنية العربية قبل بعثة محمد ﷺ.

وفيها علائق لغوية كثيرة تدل على الارتباط بإسماعيل، ومنها: أن بعض الأسماء التي تنقلها التوراة أسماء لبني إسماعيل ظلت أسماء أو صفات في لغة العرب، مثل: قدمة، ومبسام، وبعضها ظل أسماء لأماكن توجد في أرض العرب مثل: دومة (دومة الجندل) وتيما (تيماء).

وفيها ــ وهو العنصر الذي تجلى به السر في عملية الهجرة نفسها ــ مبعث خاتم النبيين ورسول رب العالمين محمد بن عبد الله ﷺ الداعي إلى التوحيد الإبراهيمي، والذي ظل ينادي بنسبه إلى إبراهيم بواسطة إسماعيل عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم. وهو الأمر الذي سنبحثه باعتباره عنصراً مستقلاً في هذه الدراسة.

وإذا كان لابد من شيء نضيفه بعد انتهاء عملنا في هذا المبحث فهو اندهاشنا التام أمام إقرار اليهود ــ والنصارى تبعاً لهم ــ أن العرب من بني إسماعيل[1]، مع أن التوراة تجعل

---

(١) Voir: Le Petit Larousse- Edit 1991(Ismael).

موطنه بعيداً بمئات الأميال عن الموطن الذي أقرته سكناً لبنيه، إضافة إلى تزويجها له بمصرية.

٢ ــ مهجر إسماعيل في المصادر الإسلامية:

نرى وجوب التذكير قبل بحث هذا الموضوع في المصادر الإسلامية ببعض الأصول التي يتبناها القرآن الكريم، والتي ظهر من دراستنا للمباحث السابقة أنها حقائق:

(أ) عنصر التدبير الإلهي في عملية التهجير ــ على خلاف التوراة ــ واضح في نصوص القرآن الكريم.

(ب) أن الهجرة تمت في سن فتوة إسماعيل، إذ كان مدركاً لحقوق الله عز وجل من جهة، وعالم بنبوة والده إبراهيم عليه السلام من جهة ثانية، وإلا لما أطاعه في الذبح، ولما رضي بالسكن في أرض مكة القاحلة ولهاجر عنها إلى موطن أكثر ثراء.

(ج) أن إبراهيم عليه السلام قد رافق ولده إلى هذا الموطن الجديد، وأنه فارقه فيه إلى الأبد، كما نرجح.

وإذا أردنا بعد استحضار هذه العناصر أن ننصرف إلى تحقيق الرواية الإسلامية في موطن هجرة إسماعيل وأسبابها، فإننا نلمح لأول إطلالة أن القرآن الكريم يخالف العهد القديم تماماً في تحديد مكانها رغم أنه يجعله منطقة صحراوية قاحلة،

تماماً مثل صفتها في التوراة، ولكنها فيه ــ وهذا فرق جوهري ــ مؤهلة لحمل ثمار البذرة التي وضعت فيها لعوامل متعددة منها:

(أ) أهميتها الكبيرة كخزان بشري لمعظم سكان المنطقة إذ خرجت منها أهم الهجرات نحو الشمال.

(ب) وجود سكان أصليين ــ على عكس سيناء ــ يستطيع النبي الشاب الدعوة لدينه بينهم. وهو ما حدث بالفعل إذ بقي العرب محافظين على بعض شعائر هذا الدين حتى مبعث النبي الخاتم.

أما هذه الصحراء القاحلة في القرآن الكريم شبه جزيرة العرب، بل الحجاز، بل مكان مخصوص فيه هو: مكة المكرمة، التي ينسب القرآن الكريم إنشاء النواة التي تأسست حولها المدينة، أي الكعبة الشريفة، إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وقد نبهنا من قبل مراراً إلى الأهمية الكبيرة التي اكتسبها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في تاريخ التوحيد الحديث كله، لما ثبت له من (الإيمان) الذي هيأه لأن يكون جداً لكل أنبياء المنطقة: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1]. ويتجلى ذلك من ناحية في النبوة الإسرائيلية بواسطة ابنه إسحاق، كما يتجلى في النبوة في بلاد العرب بواسطة ابنه إسماعيل ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝٥٥ ﴾[2].

وتبدو العلاقة بين إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وبين الكعبة الشريفة واضحة في أكثر من موضع من القرآن الكريم، إذ ينص الله تعالى على أن أول مكان هيِّىء خصيصاً للعبادة هو البيت الحرام الذي شيده هذان النبيان بأرض الحجاز ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾[3]. هذا، ويتكرر اسم إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم كلما ذكر إنشاء البيت الحرام، وهو يقرن فيه ــ عند الحديث عن البناء نفسه ــ بابنه البكر إسماعيل، مع نصه الدائم على أن هذا البناء هو رمز للدين الذي دعا إليه إسماعيل عليه السلام، رسول الله، الذي خرج نوره من مشكاة نور أبيه إبراهيم عليه السلام، أب التوحيد إلى اليوم. يقول الله تعالى:

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) مريم: ٥٥.

(٣) آل عمران: ٩٦.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1]. تبين مما سبق أن إسماعيل قد شارك أباه بناء الكعبة الشريفة حسب الطرح القرآني، الذي يجعل هذه الأرض التي أقيم عليها هذا (البناء المرجع) مهجراً لإسماعيل عليه السلام. ويتجلى ذلك في دعوة إبراهيم التي دعاها، وهو يغادر ابنه في المنطقة. يقول الله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2].

أما عن السر في هذه (الهجرة) البعيدة، فهو إرادة الله الدعوة إلى التوحيد في أرض العرب بواسطة إسماعيل، إضافة إلى إرادته التأسيس لنبوة النبي الخاتم الذي هيأت له سكنى إسماعيل في المنطقة أسباب الوجود ومجال الدعوة. ويبدو ذلك واضحاً في دعوة إبراهيم وإسماعيل الطويلة في القرآن

---

(١) البقرة: ١٢٥ ــ ١٢٧.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

الكريم، والتي منها ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1]. وهذا أمر انفرد به القرآن الكريم الذي جعل للهجرة (هدفاً) باعتبارها محركة للإيمان في زمانها وفي آخر الزمان.

هذا هو موقف القرآن الكريم وتحديده (لمهجر) إسماعيل، فهل هناك ما يؤكده طرحه أو ما ينقضه؟

أن كل الحقائق الدينية والتاريخية واللغوية تعمل على تأكيد الطرح القرآني:

١ ــ أما من حيث الدين، فإن مبعث محمد ﷺ وارتباط دعوته بجميع الأصول الإبراهيمية دليل كاف في الدلالة عليه.

٢ ــ وأما من حيث الدليل اللغوي، فإن البحث في اسم المدينة التي شيد فيها (المسجد الحرام) يبين نسبتها إلى إبراهيم عليه السلام. والعجيب أن القرآن الكريم نفسه يبين للباحث النقطة التي يجب الابتداء منها في تحقيق الأمر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ . . . ﴾. إذ يتساءل الدارس: لماذا لم يسم القرآن الكريم المدينة التي شيد فيها إبراهيم الكعبة الشريفة (مكة) وهو اسمها المعروف عند أهلها وغير أهلها في ذلك الزمان؟

---

(١) البقرة: ١٢٩.

يذهب بعض الدارسين، ومنهم الشيخ عبد الوهاب النجار ــ الذي كان يريد إثبات الأصل السامي لكلمة بكة ــ إلى القول بأن (مكة) و (بكة) شيء واحد، و(ذلك يعود إلى ظاهرة الإبدال، وهو من الخصائص الصوتية للغة العربية، حيث تبدل الباء ميماً والعكس. وهي ظاهرة مشهورة عند العرب، ومنهم قبيلة بنو مازن الذين كانوا يقولون في (بكر) (مكر)، وفي (مكان) (بكان)[1]. وهذا ــ رغم صحته ــ لا يصلح دليلاً لما أراد الشيخ أن يستشهد به له، بل هو ناقض له. ويعود حكمنا بالصحة على استدلال الشيخ النجار لأنه عبر عن حقيقة لغوية مشهورة عند الدارسين للعربية. أما عدم صحته فيما نحن بصدده فلأنه حصر الأمر في اللغة العربية وفي الشعب العربي، وهذا لا يشكل دليلاً على موضوع البحث لأن العلائق اللغوية التي يجب بحثها هنا هي تلك التي تجمع العربية مع أخواتها من اللغات السامية، وليس الخصائص الصرفية للغة العرب.

والحقيقة أن التأمل في الآية يؤدي بالباحث إلى ضرورة التمييز بين زمانين، وبين لغتين. أما الزمانان فزمان إبراهيم وزمان محمد عليهما الصلاة والسلام. وأما اللغتان فلغة إبراهيم ولغة محمد أيضاً. وهذا يؤدي بالباحث إلى ربط الآية بزمانها،

---

(١) قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، ص ١٠٨، ١٠٩.

حيث يتجلى أنها كانت تعرض لزمان إبراهيم عليه السلام، ومن هنا فقد سمت المكان باسمه في لهجته ــ أو لغته ــ وهو (بكة)، وأعرضت بالتالي عن تسميته (مكة) وهو اسمه في لغة وزمان محمد عليه الصلاة والسلام. والمشابهة بين اللفظتين لا تعود إلى خاصية الإبدال في اللغة العربية، بل إلى خاصية الإبدال بين اللغات السامية، حيث أثبتت الدراسة المقارنة لهذه اللغات أنها نشأت جميعاً عن أصل واحد، يرجح بعضهم أنه لغة مشتركة كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية، وأن هجرة شعوبها خارجها عبر التاريخ قد أبعدها رويداً رويداً عن أصلها الأول رغم ما يلاحظ واضحاً من التشابه الكبير بينهما[1].

ومن هنا فإن اسم (بكة) هو اسم سامي، أي أنه وفد إلى أرض العرب من أرض أخرى هي أرض فلسطين فيما نرجحه، حيث سكن إبراهيم عليه السلام مدة طويلة من الزمان ــ من المؤكد أن إبراهيم عليه السلام نفسه كان سامياً، لأن موطنه الأصلي هو مستقر الهجرة السامية أو العربية الأولى من شبه الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد ــ ويدل على ذلك أننا نجد (بك) اسماً للبيت في المنطقة مثل: بعلبك. وهو اسم المعبد الذي شيده الفينيقيون الساميون في لبنان الحالي، والذي

(١) انظر في هذا الموضوع، العرب، فيليب حتي: ص١٥.

يتكون من (بعل) وهو (الإله)، و (بك) وهو (البيت).

٣ ــ وأما من حيث التاريخ، فإن مكة مدينة قديمة جداً، حيث لا يعرف المؤرخون ــ على وجه التحديد ــ متى تم بناؤها، ولا كيف استقر أهلها فيها إلا من خلال الروايات العربية عنها قبل الإسلام، والتي تنص على أن من أقام بها هو جد عرب المنطقة إسماعيل بن إبراهيم. هذا إضافة إلى دعواهم جميعاً الانتساب إلى هذا الجد الأعلى الذي ينسبون إليه بناء (البيت الحرام).

إضافة إلى ما سبق فإن العرب لم تكن تذكر مكة إلا وهي تعلم أن أهم شيء فيها هو هذا (البيت) الذي كانوا يقدسونه منذ أزمنة بعيدة، ويطوفون حوله، ويهدون إليه. وظل الأمر كذلك حتى بالنسبة للعرب القريبين نسبياً من زمن البعثة الذين مارسوا تقديسهم المتوارث لشعائر الحج والعمرة دون أن يعرفوا (السر) فيها، أو على الأقل حرفوا فهمهم نظراً لطول المدة التي تفصل بين زمان بنائه وهو زمان التوحيد، وبين زمان الشرك الذي كانوا يعيشون فيه.

وهذه الحقائق التي ذكرناها باعتبارها تدل على سامية (بكة)، وهو البناء الذي سميت به المدينة كلها. إضافة إلى انتساب العرب إلى إسماعيل ــ خصوصاً إذا علمنا احتفاءهم بأنسابهم، وهم الأمة الوحشية الغيورة على رباط الدم ــ

لا يستطيع أحد أن ينكرها، أو أن يدعي نسبتها إلى الإسلام، لأنها معارف وتقاليد تعود إلى مئات السنين قبل بعثة محمد ﷺ وانتشار الإسلام في كامل المنطقة. وهي أدلة كافية وموافقة لما أكده القرآن الكريم.

وبقي الآن تحقيق جزئية في هذا البحث، تتعلق بدعوى المسلمين أن اسم (مكة) قديماً هو (فاران). واعتبارهم ذلك دليلاً على نص التوراة على سكنى إسماعيل مكة المكرمة؟[1]

سبق لنا تحديد التوراة للمنطقة التي جعلت اسمها (فاران)، وهي نقطة ما في جنوب شبه جزيرة سيناء، مما يجعل هذه الدعوى الإسلامية، لأول وهلة، غريبة بعض الغرابة خصوصاً في ظل دراستنا اللغوية السابقة التي أثبتنا فيها مناسبة اسم مكة لأصلها السامي. وهو كاف ــ إضافة إلى أدلة أخرى كثيرة ــ في تأكيد الطرح القرآني للموضوع، الذي يتبين بتتبع (نصه) و (مفهومه) عدم وجود تجمع سكني (مهما كان اسمه) في المنطقة التي بنى فيها إبراهيم (البيت الحرام)، والتي سكنها إسماعيل بعد انتهاء البناء. وهذا أصل يدل دلالة جلية على الارتباط الوثيق بين (البيت) وهو الكعبة الشريفة، وبين

---

(١) انظر: تاريخ العرب، جرجي زيدان، ص١٨٦، نقلاً عن المشترك ياقوت الحموي، ص٣٢٧. والفكرة مشهورة عند علماء الإسلام.

العمران الذي نشأ حوله ــ بعد ذلك ــ وهو مكة المكرمة، والذي يبدو واضحاً من اتخاذ المدينة ذاتها اسماً لها من اسم البيت الذي أقيم بها، وهو (بكة) السامية أو مكة بعد الإبدال الذي أوقعه عليها العرب.

ونعتقد أن هذا كاف في الدلالة على عدم تسمي مكة المكرمة (بفاران) في أي وقت لأن تاريخها يرتبط بإبراهيم عليه السلام الذي سمى بناءه بلغته، وهي التسمية التي اشتهرت بعد ذلك على الإلسنة العربية.

ومع هذا فإن الغرابة التي تحدثنا عنها قد تزول، إذ من الممكن أن تكون (فاران) اسماً قديماً لكل المنطقة التي شيد فيها إبراهيم عليه السلام البيت العتيق. ومعنى هذا أن المنطقة ذاتها لم تكن خالية من السكان تماماً. ولا ينقض ما جوزناه هنا عدم إطلاق العرب المتأخرين لاسم (فاران) عليها، لأن ذلك يعود إلى الأهمية التي اكتسبتها مدينة مكة باعتبارها مقراً للبيت الحرام، حيث غلب الاسم الجديد الذي سمى به العرب المنطقة على الاسم القديم.

والحقيقة أننا نجد في العهد القديم ما يؤكد ما ذهبنا إليه هنا ــ كما يعتبر دليلاً قوياً على تناقض هذا الكتاب فيما يخص تحديده الجغرافي لفاران التي جعلها منطقة في سيناء. ويكمن ذلك في تحديد نص من سفر التثنية لموقع (فاران) باعتبارها

منطقة تقع شمال الجزيرة العربية ــ وليس جنوب سيناء ــ وإن كنا نجهل مكانها بالضبط، يقول النص محدداً المكان الذي جمع فيه موسى عليه السلام الشريعة لليهود: «هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل في (عبر الأردن) في البرية، في العربة قبالة سوف، بين (فاران) وتوفل ولابان وحضيروت وذي ذهب، أحد عشر يوماً من حوريب على طريق جبل سعير إلى قاديش برنيع»[1]. وكان هذا موسى عليه السلام يقف في «عبر الأردن» وبالضبط «قبالة أريحا»[2] مما يعني أن فاران منطقة عربية ولا شك.

---

(١) التثنية: ١/١ ــ٢.

(٢) السابق: ٣٤/١.

obeikandl.com